تأمّلات معلّم*

رمزي ريحان[1]

«أولادكم ليسوا أولاداً لكم. إنّهم أبناء وبنات الحياة المشتاقة إلى نفسها».
«لأنّه [المعلّم] إذا كان في الحقيقة حكيماً، فإنّه لا يأمرك أن تدخل بيت حكمته،
بل يقودك إلى عتبة فكرك وحكمتك أنت».
«ولا تقل في ذاتك: «قد وجدت الحقّ»، بل قل بالأحرى: «قد وجدت حقّاً»».
جبران خليل جبران، النبي (1923)

كُتب الكثير ولا يزال يُكتب حول التعليم، لكنّ هذه المقولات الثلاث لجبران تلخّص، ببراعة، كلّ ما ينبغي أنْ يقال بحقّ التعليم. قد يبدو أسلوب جبران غير مألوف، لكن كلامه ينطوي على اهتمام بالغ وقناعة راسخة، في مقابل لغة أشباه العلوم التي كثر انتشارها هذه الأيام.

قد ندّعي أن أولادنا ملكٌ لنا، وهذا –بلا شكّ– صحيح، لكنّ كلّ طفل يمثّل حياة جديدة، تتشارك العديد من الخصائص مع البشريّة والحياة ككلّ، ويشكّل في الوقت ذاته كائناً مستقلاً بذاته؛ فريداً بما لديه من شخصيّة ودوافع وأفكار. وعلى الرغم من كون هذه الحقيقة مسلّماً بها، ومعروفةً لدى الكثيرين، فإنّها نادراً ما تنعكس على واقع تعاملنا مع الأطفال، فكثيراً ما يُعامل الأطفال كأشياء أو مواد بلا إحساس ولا رأي، ومراكز لإسقاط آمالنا وطموحاتنا عليهم، بدل أن يعامَلوا كما هم في الحقيقة؛ أي مراكز وعي وإرادة.

علينا أنْ ندرك ونتقبّل منذ نعومة الأظافر وحتى البلوغ، اختلاف الـ «آخر» واستقلاله، وهو ما ينبغي أنْ يبدأ من التربية في البيت، ويتواصل في المدرسة، ليظهر جليّاً من خلال علاقاتنا مع الآخرين والأقران حولنا. ولهذا السلوك أهمّية قصوى في عمليّة التعليم، وقد زادت أهميته مع نشوء ما يُسمّى «ثقافة الشباب»، حيث أصبح الشباب فئةً اجتماعيّةً معترفاً بها، ولها قواعدها وطموحاتها، وهناك اليوم أيضاً من يدّعون أنّ «ثقافة الأطفال» هي الأخرى حديثة النشوء.

تعدّ الأسرة والمدرسة المؤثرين الوحيدين في حياة الشباب في عالم اليوم، فهناك عوامل خارجية تشمل الإعلام الاجتماعيّ، والأصدقاء (الأقران)، والمجموعات الأيديولوجيّة التي تحاول أن تجنّد الشباب أو تغسل دماغهم، ما يستوجب أنْ يقوم البيت والمدرسة بتكيّف سريع مع هذا الواقع المتغيّر. لذا، يتوجّب علينا أنْ نقوم بتوجيه الأطفال وإقناعهم، لا إصدار الأوامر لهم، وأوّل ما يجب القيام به هو إقناعهم أنْ يصحبوا شركاء في عمليّة التعلّم/التعليم، الأمر الذي يستدعي من المعلّمين أن يتقبّلوا الأطفال كشركاء فاعلين. لكنّ الكثير من معلمينا يفتقدون إلى هذ التوجّه، لذلك فإنّ غرس هذا السلوك لدى المعلمين يجب أنْ يصبح الأولويّة العظمى في النظام التعليميّ.

ما سبق يقودنا إلى مقولة جبران الثانية، فالمعلّمون الذين يقومون بنقل المعرفة إلى طلّابهم هم ببساطة منغمسون في إعادة إنتاج

عقيم، مع التناقض الواضح في الترادف الضدّي هذا، فحتى يكون التعليم معطاءً، عليه أن يشدّ المتعلّم ويساعده على النموّ، فأصل كلمة تعليم في الإنجليزية لاتيني، ويعني شدّ/جذب أو التربية، وهذا ليس مفاجئاً، فالأمر ذاته ينطبق على الكلمة العربيّة تربية، المشتقة من الجذر ربّى، الذي يعني نما، ما يعني أنّ التعليم الصحيح يجب أنْ يساعد في استكشاف القدرات الكامنة لدى المتعلّم، وفي استثارتها. لا شكّ أنّ على المعلّمين أن يعرفوا أكثر من المتعلّمين، لكن يجب أنْ يمتلكوا القدرة لرؤية ما يتعدّى معرفتهم، وأن يستطيعوا التنقيب في عقول المتعلّمين وقلوبهم لتحفيزهم، وتوجيههم، ودعمهم في البحث عن طريقهم إلى المعرفة والفهم والتقدير. هذا يتطلّب من المعلمين أنْ يتخلّوا عن أنانيتهم، وهو ليس بالأمر السهل، فنكران الذات لدى المعلمين قليل الوجود، وهو ما يشكّل العقبة الأكبر أمام التعليم الجيد، ولو قمنا برصد برامج تدريب المعلّمين، لوجدنا أنّها تركّز على إعطاء المعرفة للمتلقّي في المجال أو الحقل، وعلى الأساليب التربويّة (البيداغوجيّة) التقليدية، في الوقت الذي تفتقد فيه إلى التغلغل إلى نفس المعلّم وإنسانيته وصقلهما.

أما المقولة الثالثة والأخيرة لجبران، فهي حقيقة أبديّة اكتسبت اهتماماً متزايداً وملحوظاً مؤخّراً، ففي قديم الزمان، كانت المعرفة بالعالم الماديّ –سواء أكان جماداً أم بيولوجياً– عقائديّة (دوغماتيّة)، غير أنّ الأدلة والبراهين المستمرة أجبرت العلوم البحثية على قبول النظريات والتفسيرات دائمة التطوّر، وكذلك تبعتها في ذلك العلوم الاجتماعيّة والإنسانية. وعلى الرغم من ذلك، فكثير من الناس ما زالوا يتمسكّون في حياتهم اليوميّة بالنظرة العقائديّة، التي تحول دون الفهم الصحيح، وردّ الفعل المناسب في وجه العديد من التحدّيات. لذا فمهمة التعليم تكمن في كسر هذا الجمود، وتوجيه المتعلّمين نحو تقبّل المرونة والتعدديّة دون التنازل عن المبادئ الجوهريّة، مع المحافظة على القدرة على التفريق بين ما هو أساسيّ، وما هو مشتقّ؛ وقد أصبح هذا أكثر إلحاحاً في مجتمعات متصلة ومتعدّدة الثقافات كعالم اليوم.

لقد تناولتُ خلال هذا المقال اعتبارات عامة ومجرّدة، لكنّها تنطبق بشدّة على الواقع الفلسطيني. تحمل فلسطين على كاهلها العديد من الأثقال، فهناك إرث الماضي مع صلة محدودة بالواقع، والكثير من الممارسات والتقاليد البالية، وهناك انقضاض ثقافيّ من العالم الخارجيّ مع بعض التأثيرات المفيدة، والكثير من التأثيرات غير المفيدة أو حتى المضرّة، وكذلك الهجوم الشرس على الوجود والبقاء؛ وصراع متواصل بين أيديولوجيات متناقضة في مجتمع لا يزال في طور البحث عن هويّته الحقيقيّة؛ فباتت الهموم اليوميّة الشاغل الأكبر في ظل ما يشهده المجتمع الفلسطيني من اضطراب سياسيّ واقتصاد متقلقل.

وفي غمرة هموم المجتمع الفلسطيني العديدة والملحّة، أضحى التعليم في أدنى قائمة الأولويّات، مع كون التوسّع الكمّيّ هدفاً أوحد للسلطة والقيادة؛ فالصرف الوطنيّ على التعليم منخفض، في حين أنّ التعليم استثمار طويل الأمد، نحصد ثماره بعد عقود، وهو ما يتطلّب وجود قيادة تربويّة ترنو إلى المستقبل، بينما تواصل عملها اليومي.

من مساق الدراما في التعليم مع طلاب سنة أولى، المدرسة الصيفية 2015، جرش- الأردن.

ولعلّ أحد أهم المآخذ المتكرّرة على نظام التعليم الفلسطينيّ، هو تركيزه على الامتحانات التي تقيس قدرة الحفظ لحقائق غير متّصلة، عن طريق الحفظ غيباً. وقد ساهمت الثورة التكنولوجية بشكل غير مقصود في التقليل من تقدير قيمة التعليم الجيّد، كما أصبحت المناهج قديمة، وبحاجة إلى تجديد شامل. والمتابع للساحة الفلسطينية يلاحظ تنحّي التعليم عن دوره الأساسيّ كأداة للتنمية الوطنيّة، ليصبح عوضاً عن ذلك عبئاً وطنيّاً بعوائد منخفضة.

يجب أن يصبح التحوّل الجذريّ في النظام التعليميّ الفلسطينيّ أولويّة اجتماعيّة عليا، وأنْ يُسلّط الضوء على طبيعة العمليّة التعليميّة بحدّ ذاتها، فعلم أصول التدريس (البيداغوجيا) يجب أنْ يعاد تعريفه باعتباره تفاعلاً إنسانياً.

مع كلّ ما سلف، أضحت الحاجة ملحّة لتحوّل جذريّ في النظام التعليميّ الفلسطينيّ، ليصبح أولويّة اجتماعيّة ووطنية عليا. إنّ نسب الانتساب للتعليم في جميع مراحله مقبولة وجيّدة، وارتفاع هذه النسب بين المراحل كافة، أمر مطلوب ومرغوب، لكنّ الحرص الأكبر والاهتمام الأعظم، يجب أنْ يُوجّه نحو طبيعة العمليّة التعليميّة بحدّ ذاتها، فعلم أصول التدريس (البيداغوجيا) يجب أنْ يعاد تعريفه باعتباره تفاعلاً إنسانياً؛ أي أنّ المناهج التعليمية يجب أنْ تصمّم لتنمية التفكير النقديّ ومهارات التحليل لدى الطلاب، لأنّ اكتساب المعلومات ما هو سوى الخطوة الأولى في العملية التعليمية، وليس الهدف النهائيّ، فالتعليم، كما في جوهره، يجب أنْ يحفّز ويستثير لدى المتعلّم حبّ التعلّم، ليحوّله من التزام إجباري إلى حدث نشط. كلّ هذه التغيّرات أساسية وملحّة على التعليم الفلسطيني ليصبح أداة تساهم في إحداث التقدّم الاجتماعيّ، والإثراء الثقافيّ، والنموّ الاقتصاديّ، والإنجاز السياسيّ.

ويبقى السؤال الأهم: هل لدى القيادة التربويّة الرغبة في النهوض بالتعليم الفلسطينيّ من واقعه المتردّي ليصبح عملية حيّة ونشطة؟ هل لديها الرؤية لقيادة هذا التحوّل؟ أم هل نحتاج، من أجل بلوغ هذا الهدف، إلى قيادة جديدة بتفانٍ مخلص وعزيمة راسخة وفهم عميق؟ وبين كلّ هذه التساؤلات، يظلّ مستقبل فلسطين يتأرجح بين كفتي الميزان.

الهوامش:

* هذه ترجمة إلى العربية لمقالة رمزي ريحان التي نُشرت بالإنجليزية في دورية (This Week in Palestine) تحت عنوان (An Educator's Reflections).

1 رمزي ريحان مدرّس فلسطينيّ عمل في جامعة بيرزيت منذ سنة 1970. تبوّأ عدداً من المناصب الإداريّة خلال سيرته المهنيّة، كما شارك في العديد من المؤتمرات عن التعليم الفلسطينيّ.

مجموعة طلاب يشاركون في فعالية « الفوتوغرافيا الزرقاء» ضمن التحضيرات لمهرجان العلوم الفلسطينية. مركز نعلين للمعلمين 2015.